فيصل بن الحسين

آثار مبعثرة تدل المنقبين على القصر الشامخ

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

وزير خارجيته في دمشق

رآني صديق لي في الاسكندرية في مساء الجمعة الواقع في اليوم الثامن من ايلول (سبتمبر) الماضي والجزع آخذ مني مأخذه لنبأ الفاجعة الذي انتشر في الشرق ينعى فيصل بن الحسين فأخذ يعزيني قائلاً هوّن عليك فالراحل سيعرف الناس فضله بعد مماته . ولكن كلامه هذا وما فيه من الاشارة الى الدعايات الباطلة التي كانت تثار على الراحل العظيم زاد في جزعي وفي ألمي لانني اعتقد انها طعنة في صميم الرجل ألاّ يعرف الناس فضله الاّ بعد مماته، وان الطموح المبني فقط على التقدير بعد الموت هو طموح مقعد وان صاحبه عيٌّ في القول كلٌّ في العمل تنقصه الكياسة والحكمة والشجاعة . ولكن فيصلاً لم يكن من هذا النوع من الرجال فقد شقّ طريقه الى المجد في صخر من العداوات الجنسية والدعايات الوهمية والعقبات الاستعمارية حتى رأى نفسه على قمة قضية سيكون لها في تاريخ العالم الحديث اخطر الآثار ، وما زال يعلو وينبسط حتى اصبح الذين كانوا يملأون الصحف بتسويد صحيفته يحبرون اطول المقالات في الثغني ببياض جبينه الناصع

هذا هو فيصل بن الحسين الذي نعاه الناعون بسكتة قلبية في مدينة (برن) من سويسرا في الصباح المبكر من ذلك اليوم المشؤوم، فكان لنبئهم هذا صدًى يتراجع انينه بين شواطىء المحيطين — المحيط الهندي والمحيط الاطلنطي — ذلك لان في تلك الاصقاع المترامية الاطراف اناساً متعبة تنظر اليه والى الافذاذ من امثاله « نظر الغرق الى الساحل » . وليس في قصدي ان اتناول بالبحث حياته الواسعة فأحصرها في بضع صفحات لأنه من الظلم الفاحش الذي تأباه الطباع الحرة ان يحصر المرء الاسد الهصور في السجن الضيق ، وانما اريد ان اكتب عنه من الشذرات ما يلقي نوراً على دخيلته خصوصاً ما عرفته منها بنفسي . والآثار الصحيحة ولو كانت قليلة ومبعثرة تدل المنقبين على البناء الشامخ الذي يفتشونه بين الانقاض

تفسر لنا البيئة التي نشأ فيها معظم خصاله خير تفسير ، فالبداوة التي قضى في احضانها شطراً من عمره تعلل لنا البساطة التي لازمته من خندق الثورة حتى عرش الملك والتي كانت منار الاعجاب به ، لان بساطة العظيم ضرب من العظمة لما تتضمنه من احتقار الدنيا ، والذين

تتقعهم العظمة الحقة يطلبونها عادةً في الابهة والعبدية، فقد ولد الملك الراحل في مكة في سنة ١٨٨٣، وفي نحو السادسة من عمره أرسل الى قرية (وهاب) بالقرب من (الطائف) حيث قضى ست سنوات يتخلق بأخلاق البدو من شظف عيش ومواجهة طبيعة ومقارعة السنان، وفي الثانية عشرة من عمره سافر الى (الاستانة) مع والده فاتصل هناك بالحلقات العثمانية التركية وتلقى العلوم على اساتذة خصوصيين، وظلّ فيها الى ان رأى بعينيه الانقلاب العثماني في سنة ١٩٠٨ والحفلة الشعواء المغرضة التي حملها بعض فتيان الترك على الموظفين العرب في العهد الحميدي

ومن اهم ما نعنى به ان نحيط بالروح التي كانت متجلية في البيت الذي ترعرع فيه، لان الالفاظ التي ينطق بها الآباء في احاديثهم البيتية متى كانت صادرة عن عقيدة في النفس تركت أثرها في الابناء مهما كانت طباعهم، وقد اتيح لي في الاشهر التي اعقبت الانقلاب العثماني ان اطلع بصورة خاصة على نزعة رب البيت الهاشمي الشريف حسين بن علي والد الفقيد، فقد كنت في الهيئة المركزية لجمعية الاتحاد والترقي في سورية، وكان معنا من الاعضاء المرحوم عبد الرحمن باشا اليوسفي امير الحج، فلما جاءنا الخبر من المركز العام في سلانيك بأن النية متجهة الى نقل الشريف حسين باشا من مجلس الشورى في الاستانة الى مكة ليكون شريفاً على الحجاز حمل الباشا اليوسفي عليه حملة منكرة فذكر طموحه الذي لا حدّ له، وما قاله انني لا اخشى اذا صار اليه الامر ان ينسلخ الحجاز عن المملكة العثمانية وتصاب خلافة آل عثمان في الصميم. ودلت الحوادث التي اعقبت هذا الكلام على شيء من هذا الطموح، وقد عثرتُ مع احد الموظفين السابقين في احدى الدول العربية على وثائق انكليزية سرية تشير الى هذا الامر وتشرح زيارة سمو الامير عبد الله الى القاهرة قبل الحرب والاسباب الداعية الى هذه الزيارة وما جرى فيها من الاحاديث. فهل كان في الامكان يا ترى ظهور هذا الطموح على مسارح السياسة العملية لولا تلك النزعة الطورانية العنيفة التي ظهرت في الترك من بعد الانقلاب في سنة ١٩٠٨؟ ولو لم يجد هذا الطموح من اضطهاد الترك للقومية العربية منبهاً وحافزاً لما استطاع ان يجد الانصار الكافين لبروزه الى حيز الوجود، وقد ذكر الحسين بن علي في المنشور الذي اعلن فيه الثورة العربية في حزيران (يونيه) من سنة ١٩١٦ ان في مقدمة الاسباب التي حملته على الانتقاض المشانق الغالية التي نصبها جمال باشا في سورية — فطموح البيت الهاشمي والمظالم الاتحادية تحلل لنا الجوّ الذي نشأ فيه الملك الراحل

ثم لما اعلنت الحرب العالمية عدّها الاتحاديون فرصة سانحة لتطبيق مناهجهم السياسي فكشروا عن نابهم وهاجمونا مهاجمة عنيفة في عقر دارنا مهدوا لها السبيل بالدعايات التي تجوز على اهل العقائد الوهمية. حينئذ اتخذ الطموح في البيت الهاشمي وجهة قومية صريحة لا مواربة فيها، وقد تجلت لي على اتم مظاهرها يوم قابلت الملك الفقيد في بيت المرحوم عطا باشا البكري

في دمشق الشام في صيف سنة ١٩١٥ ، ويجب ان تكون هذه المقابلة قد تمت عقيب اول رسالة دارت بين الحسين بن علي وبين السير هنري مكماهون للاتفاق بين بريطانيا والعرب وتاريخها شهر تموز — يوليو — سنة ١٩١٥ ، ودار الحديث بيننا حول القضية العربية ومظالم الاتحاديين والعلاج الشافي من تلك الاوصاب ، وقد بدت لجميع من اختلوا به من العاملين روح الثورة على وجهه. ولكن الضغط يومئذ كان يتطلب منتهى الحذر في المتكلمين والمستمعين لان اقل بادرة تبدر من المرء تكفي لجره الى المشنقة ، وقد اشار الى هذه الاجتماعات في خطاب القاه في دمشق بعد عودته من مؤتمر الصلح بقوله «هم والدي بهذه الثورة بعد ان انيبت الى سورية وواجهت بعض الرجال وعدت من مجيئي الى دمشق ان الافكار السورية بأجمعها متجهة نحو الاستقلال». هذه نبذة مختصرة تدلك كيف نشأت في نفسه الميول الثورية وتدرجت تدرجاً عملياً ، فتتساءل كيف استطاع ان ينجو بنفسه من طاغية الاتحاديين احمد جمال باشا ويمثل اخطر ادوار الثورة ولا سيما بعد ما جاءت التقارير الرسمية السرية من بصرى باشا حاكم (المدينة) وفيها ايقاظ الحكومة من غفلتها وتنبيهها الى الطوارىء الخطيرة المتوقعة من الحجاز

وفي الجواب عن هذا السؤال ما يدل على ناحية اخرى من نواحي التقييد وهي مقدرته السياسية وحنكته وغزارة حيلته ، فقد اتفق مع والده على ان يجيء الى دمشق بمهمة ظاهرها تقديم جيش من متطوعة الحجاز لمساعدة الجيش العثماني الرابع في هجومه الثاني على مصر وباطنها درس الاحوال في سوريا عن كثب والاطلاع على خطط الحكومة الاتحادية نحو العرب والاتصال بالعاملين من ابناء البلاد . فلما اشتدت المظالم الاتحادية واصبحت لا تطيقها الانفس الابية ابتكر طريقة للنجاة من ايدي الطغاة فاقترح على جمال باشا ان يرسل وفداً لاستقبال الجيش الحجازي وان يكون هو — فيصل — على رأسه فتقبل الطاغية اقتراحه ، فلما بلغ الوفد المدينة واتصل فيصل بالجيش الذي اوفده والده اليها اشار على الاعضاء الترك ان يعودوا الى جمال باشا ليتفقوا معه على طريقة نقل الجنود الى سورية ، واتخذ هو هذه الفترة فارسل الى دمشق رجالاً من السوريين ليتفقدوا من بقي فيها من ابناء عمه الحجازيين واصدقائهم من الوطنيين. اما انا فكنت وصديقي المرحوم توفيق الحلبي قد سبقنا الى معرفة الخطر المداهم فنجونا بانفسنا بطريق البادية الى العراق وبقينا حيناً في مصر قبلما اعلنت الثورة العربية في مكة والمدينة

اخذ الملك الراحل على عاتقه قيادة جيش الثورة الشمالي فسار على ساحل البحر الاحمر وغادر (المدينة) محصورة يحيطها اخواه الملك علي والامير عبد الله ، وما زال يسير موفقاً بين القبائل والمدن حتى دخل دمشق الشام في اليوم الاول من شهر اكتوبر — تشرين الاول — سنة ١٩١٨ ، وسيكون تاريخ هذا الجيش بداءة تنظيم النهضة العربية تنظيماً عملياً حديثاً لان نخبة منتخبة من مثلوا اخطر الادوار في الاقطار العربية الشمالية فيما بعد تدربوا على الثورة في وحداته

وعملوا تحت لواء قائده. فمنهم جعفر باشا العسكري مثلاً فان رواية انضمامه الى الجيش العربي الناجح يجوز ان تتخذ نموذجاً للبواعث التي كانت تدفع بعض العاملين الى التطوع، فقد خدم جعفر باشا الدولة العثمانية في طرابلس الغرب وبرقه اثر خدمة الى ان وقع اسيراً بيد الانكليز على حدود السلوم فسجن في قلعة (محمد علي) في القاهرة حيث حاول الفرار من النافذة لاجل العودة الى القتال الا انهُ سقط فكسر بعض اطرافه فنقل الى مستشفى الاسرى في (المعادي). هنالك اتيح لي ان اراه فاطلعهُ على جرائم احمد جمال باشا وزبانيته وكيف شنق النخبة المنتخبة من الرجال في اليوم السادس من مايو سنة ١٩١٦ فتحول جعفر باشا لهذه الانباء فجأة واقسم بشرفهِ العسكري ان ينتقم لاخوانهِ الشهداء وفي مقدمتهم سليم بك الجزائري، وقد برَّ بيمينهِ وبعد حين كان بين القواد البارزين في الجيش العربي الشمالي. ففي هذا الخبر الشخصي البسيط ما يكم افواه الذين قالوا ان الجيش العربي مجموعة افراد من المرتزقة

وفي هذا الجيش وما لابد فيهِ من الاختبارات المتنوعة والحاجات الشديدة الى المزايا العامة تكاملت خصال الراحل الكريم واتجلت نواحيهِ فكان القائد البارز الذي لم يفكر احد في منافستهِ تفكيراً جدياً، وان حدثت شبه حادثة من هذا النوع فلا يؤبه لها، ويرجع الى هذا الجيش الفضل الاكبر في تخفيف المظالم الاتحادية في سورية واخراج طاغية الاتحاديين من تلك الانحاء وتطهيرها من زبانيته وعماله. لا جرم انهُ لما دخل الشام استقبله اهل البلاد استقبال المنقذ وعدوه منحة من السماء جادت بهِ عليهم لتحقيق امانيهم القومية والانتقال بهم من ضيق الترح الى محبوبة الفرح

ولما عقد مؤتمر السلام في (فرساي) انتدبهُ والدهُ ليمثل الحجاز فيهِ فغادر سورية في اوائل سنة ١٩١٩ والتقى هنالك باعاظم الرجال وظهرت لهم مواهبه اذ كان يدافع عن حقوق العرب ويطالب بالعهود التي قطعها الحلفاء لوالده، وقد سئل يومئذٍ عن رجال السياسة والاثر الذي تركوه في نفسه فقال انهم مثل الصور البراقة المعلقة في الدهاليز يجب ألاَّ ترى الاَّ من بعيد، وكان الدكتور ولسن وعقيلته يكثران من النظر اليه وكثيراً ما قال الدكتور ان طلعته تشبه طلعة المسيح

ولما عاد الى سورية استقبل استقبالاً فخماً لم تعهد الشام مثله منذ زيارة الامبراطور غليوم وكان مما فعله ان نشر بياناً في الصحف قال فيه ان مبدأ الاستقلال قد تقرر وان لجنة دولية لاستفتاء الاهالي في مصيرهم ستؤم البلاد، وفي شهر اكتوبر (تشرين الاول) من تلك السنة تلقى دعوة من الحكومة البريطانية للبحث معهُ في الشؤون السياسية التي استجدت وذلك لان الانكليز والفرنسيين كانوا قد اتفقوا في منتصف شهر سبتمبر — ايلول — السابق على ان تنسحب بريطانيا بجيوشها من المنطقة الشرقية وتبقى الجيوش الفرنسية حيث هي في المنطقة الغربية

وعين الجنرال غورو بيرمشفر مندوباً سامياً على لبنان وسوريه والسير هربرت صموئيل على فلسطين . فركب الفقيد سفينة بريطانية اقلته الى اوربا فتأخرت على الطريق لعطل طرأ عليها قيل انهُ مفتعل بقصد التأخير حتى اذا وصل الى لندن يكون كل شيء من التفاهم قد تمّ بين الحليفتين. وكذلك كان الامر لان الدلائل دلت على ان الفرنسيين والانكليز وجدوا طريقة لاقتسام الاسلاب فلم يبق امامهم الاَّ تبليغ المنهوبين القرارات المتخذة بحقهم ، ويؤيد ذلك ما ذكره لي المستر تشارلس كرين رئيس اللجنة الاميركية التي أمَّت سوريةفي صيفسنة ١٩١٩ لاستفتاء اهلها في تقرير مصيرهم بقوله (اننا لما خرجنا من اوربا في مهمتنا كنا كلنا آمالاً كباراً فلما عدنا اليها كانت نفوسنا طافحة بالخيبة ، ذلك لاننا رأينا سورية قد بيعت في اثناء غيبتنا بيع السلع ... بيعت بآبار الموصل) ؛ وهذه الصفقة تمَّت في مؤتمر ايلول (سبتمبر) المذكور الذي قرر ان تكون الموصل في منطقة الانتداب البريطاني ، وقد باعتها حكومة المسيو كلمنصو من غير ان تنتبه الى الثروة التي تفيض من احشائها فكان من نتيجة الغبن الذي اصابها تلك الحملة القاسية التي نزلت بالمسيو كلمنصو ورجاله

افهم الانكليز فيصلاً بصورة صريحة ان فرنسا اصبحت الآن صاحبة الشأن في سورية فعليهِ ان يتفق معها مباشرة وانهم لا يحجمون ان يكونوا وسطاء خير، فسافر الى باريز حيث اجتمع بالمسيو كلمنصو ودخل معهُ في مباحثات بسط له فيها حرص الامة السورية على وحدتها واستقلالها فكان من نتيجة هذه المباحثات وضع اسس الاتفاق (في ٦ يناير سنة ١٩٢٠) الذي اطلق عليهِ اسم « اتفاق كلمنصو — فيصل » وخلاصة هذا الاتفاق الوحدة الشاملة للعلويين وجبل الدروز، وجعل بيروت والاسكندرونة مدينتين حرتين ، وسحب الجيوش الفرنسية من سورية الى كليكيا فاذا اقتضى الامر استدعاء هذه الجيوش مرَّة ثانية فلا يكون ذلك الاَّ بطلب رئيس الدولة السورية واتفاقه مع المفوض السامي ؛ اما المستشارون الفنيون فيوضعون تحت تصرف الحكومة السورية ومنها يتسلمون وظائفهم ويستمدّون قوتهم التنفيذية بموجب عقود واذا حدث بينهم وبين الحكومة خلاف فقد اصرَّ الفقيد على ان يحل ذلك في مجلس الوزراء السوري لا في فرنسا كما اصرَّ المسيو كلمنصو ، وتكون دمشق عاصمة البلاد وحلب مقر المندوب السامي واللغة العربية لغة البلاد الرسمية

***

لقد اوردنا هذه الخلاصة لبيان الاسباب التي حملت الامير فيصلاً على قبول هذا الاتفاق وامضائهِ بالحروف الاولى من اسمه كما امضاه المسيو كلمنصو وكيف كان راضياً بهِ لكن دعاية شنيعة بثت عليه عند عودته فتراجع من غير نظام لانه كان لا يزال حديث عهد

بالشؤون السياسية والحلات المدبرة بالرغم من جميع تلك الاختبارات البالغة التي مرّت عليه، ولو أنه وقف موقفاً ثابتاً ودافع عن آرائه بمثل الطريقة المدبرة الحاذقة التي سلكها في العراق فيما بعد لوجد من المعتدلين انصاراً يؤيدونه ويقفون في وجه مناوئيه . ولا يدري احد ما عسى ان يكون التدرج في دمار الشام لو تم هذا الاتفاق وبقي فيصل السياسي الممتاز ملكاً على سورية . ومما لا شك فيه مطلقاً انه كان في نفسه راضياً عن هذا الاتفاق ولم يظهر لي ذلك منه في ابان وزارتنا فقط بل في بغداد أيضاً في سنة ١٩٢٦ فقد ذكره لي بشيء من الاسف الصريح وزاد أسفه للحالة المنكرة التي وصلت اليها سورية . ومما قاله للسير كلمنصو لفيصل عند البحث في هذا الاتفاق « ان هذا الشعر الشائب الذي تراه في شاربيّ وفوديّ قد ابيضّ من معاناة السياسة في هذه البلاد ، وانا لست استعماريًّا ولا اعتقد بالاستعمار . وانني اعرض عليك معاهدة لن تجد سياسيًّا فرنسيًّا مسؤولاً من بعدي يعرض مثلها ، فكر في الامر ملياً وانا انتظر جوابك »

وفي عقيدتي ان هذه الحادثة واضرابها من الحوادث التي جرت في سورية فتقت ذهن النابغة الكبير وايقظت مواهبه ودلته على الطريقة التي يستعين بها لتأييد مذهبه ، والنابغة مثل الدليل الحاذق يحتاج الى شيء من التمرين العملي قبل ان يصير رائد القوم

لا جرم ان يقول ابناء سورية عن فيصل بن الحسين انه درس في الاستانة وتمرن في الشام وطبّق في العراق

وفي هذه الاثناء ارتأى بعض الوطنيين ان يواجهوا فرنسا بالامر الواقع فاشاروا عليه ان يعلن استقلال البلاد تحت لوائه وبتأييد صولجانه فوافقهم على ذلك، وفي اليوم السابع من آذار (مارس) سنة ١٩٢٠ اتخذ المؤتمر السوري قراراً باعلان استقلال سورية بحدودها الطبيعية وتمليك الامير فيصل عليها ؛ فاحتفلت الامة في اليوم التالي في دار البلدية بدمشق احتفالاً عظيماً باعلان هذا القرار ومبايعة جلالته ؛ وان انس لا أنس وقفته على الدكة يصافح المبايعين من « أهل الحل والعقد» واحداً واحداً، ولولا كسوة الملك البراقة على جسمه النحيف وهو امام العرش لم تكن هيئته يومئذٍ لتختلف كثيراً عن هيئته لما رآه الكولونل لورانس لاول مرة في (وادي الصفراء) على طريق المدينة فقال عنه متنبئاً:— « وعلى الجانب الابعد من ساحة الدار الداخلية . . . . وقف شيخ أبيض ينتظرني بلهفة وشوق ، ولما وقعت عيني عليه شعرت بانه الرجل الذي قدمت الجزيرة العربية في طلبه — شعرت بالزعيم الذي يستطيع تتويج الثورة العربية باكليل الظفر ، وظهر لي وهو بكسائه الحريري الابيض وكوفيته المعقودة بعقال ذهبي قرمزي لامع طويلاً جدًّا كالعمود ونحيفاً للغاية ، وكانت عيناه الدامعتان ولحيته السوداء ووجهه الشاحب الشبيه بالقناع مسدولاً على جسمه المتنبه انتباهاً ساكناً عجيباً ، وكان متكئاً

ويداه على خنجره فسألني : هل أحببت مكاننا هنا في وادي الصفراء ؟ فأجبته نعم ، الاّ انه بعيد عن دمشق الشام ! (١)

وفي اليوم الاول من مايو (ايار) سنة ١٩٢٠ دعيت للاشتراك في الوزارة الاتية فقبلت وزارة الخارجية فيها فاتيح لي ان ارى جلالته يعمل في أعصب الاوقات وقد كان على اتصال تام بعلائق الدولة الخارجية الآخذة في النمو ، واذكر هنا حادثة تدل على ما تحلّى به من الموهبة السياسية وكيف كان سبّاقاً الى رؤية الخطر المداهم ومحيطاً بالقواعد الاساسية التي تسير بموجبها الشؤون من غير ان يغرق في التفاصيل ويرتبك بالشؤون العرضية الثانوية مشغولاً بها عن الامور الجوهرية الاولية. فقد كنا ذات يوم في مجلس الوزراء نعالج مشاكلنا مع الفرنسيس كالعادة ونسعى بكل ما اوتينا لدفع كارثتهم عن البلاد ولم يكن في الافق السياسي حدث جديد يدعو الى الاضطراب فدخل علينا الملك وعليه علائم الاضطراب والقلق كأنه يتوقع بلاء ثم قال اني لاخشى ان تسير أمور الدولة من الآن فصاعداً في الوعر وان تتكوّم العقبات أمامنا فقلنا ما الذي حدث فقال ان الفرنسيين عقدوا اليوم أمس اتفاق مع الترك وسيتفرغون لمعالجة القضية السورية لان اتفاقهم مع الترك يعني توفير جيوشهم في الشمال لمحاربتنا في الجنوب . وقد صدق ظنه وجاءت النتائج طبق ماتوقع لان الجنرال غورو حالما حصل على هذه الراحة في الحدود الشمالية تنمر وكشر عن نابه . ولو أوتي للمليك الخالد حزماً على قدر فطنته وبعد نظره لتمكن من استغلال ضعف الفرنسيين لمصلحة سورية عند ماكان يعصرهم الترك عصراً يقطع الانفاس في جهات اورفة وماردين وعينتاب

ولما تنفس الفرنسيون الصعداء من بعد هذه الراحة اسرعوا فارسلوا اندارهم العدائي المشهور الذي قدموه يوم عيد جمهوريتهم ، ومن البواعث الكبرى التي حملتهم على هذا الطيش السياسي وما جرّ لسمعتهم الادبية من ضرر ، اعتقادهم ان فيصلاً عامل انكليزي وان وجوده في الشرق على رأس حكومة سورية هو اخفاق لسياستهم وانتصار للسياسة البريطانية. ولكن الشيء الذي لم يروه ورأيناه بعيوننا ولم يفسروه ولسناه بايدينا انه من بعد عودته من اوربا في المرة الثانية وخيبته من حلفائه السابقين كان اقرب الى الكولونل كوس والكولونل طولا ممثلي فرنسا في دمشق منه الى الكولونل ايستن ممثل بريطانيا ، وكانت النقمة في نفسه وفي نفس كل واحد منا على انكلترا لانكارها عهودها الصريحة في ساعة الشدة اضعاف ماكانت على فرنسا. والذي فات الفرنسيين ان فيصلاً هو وطني اولاً وسياسي ثانياً وقد اوضح هذا المعنى ايضاحاً يتم على ما في قلبه يوم قال لمحرر جريدة (الانفورماسيون) بتاريخ ١٢ شباط — فبراير — سنة ١٩١٩ « يجب الاّ تكون الاعانات التي تناولها من انكلترا للمحاربة الى جانبها والى جانبكم

(١) Revolt in the Desert, p. 18.

حجة تتخذ عليّ لتصويري بصورة داعية انكليزي . . . يمكنكم ان تصرّحوا على رؤوس الاشهاد بأنني لا أعمل ابداً لا لانكلترا ولا لفرنسا بل للعرب وللعرب فقط »

وكان الملك شديد التأثر بكل ما عليه مسحة من الوطنية او يظن انه من عقيدة الوطنيين الصميمة الى ان حلّت الكوارث آخذة بعضها برقاب بعض فتمرّن على التفريق في الوطنيات بين الاصلي والمقلّد والصحيح والباطل والنافع والضار حتى اذ صار ملكاً على العراق كان ثمرة يانعة . فمن دروس تلك الايام العملية ان الجنرال اللنبي ابلغه برسالة تاريخها ٢٧ نيسان — ابريل — سنة ١٩٢٠ باسم الحلفاء انهم اجتمعوا في (سان ريمو) وقرروا اعطاء الفرنسيين الوصاية على سورية والانكليز الوصاية على العراق باعتبارهما دولتين مستقلتين وطلب فيها الى الراحل الكريم بالحاح المجيء الى اوربا ليتمكن من بسط قضيته وقضية البلاد وخصوصاً حقوق ملكيته لانها لا تتقرر الاّ في مؤتمر الصلح وكانت الفوضى بين الحلفاء تفسح مجالاً كبيراً لظهور كياسته ومقدرته السياسية لو لبّى الطلب من غير تردد لكن دعاية عنيفة بثت عليه في المؤتمر السوري حالت دون اقدامه على السفر في الوقت الموافق ومضمون هذه الدعاية ان الملك مسافر لتنفيذ معاهدة سرية بينه وبين فرنسا !

***

وليس في الملك الراحل قابلية الاستبداد الاوتوقراطي بل ميزته البارزة هي الكياسة والسياسة وحسن التخرج، ولولا هذه الميزة ما استطاع العراق ان يسير الى الامام بمثل هذه السهولة ، والواجب الاّ يغرب عن بالنا ان البطولة في الرجال هي صفة نسبية تتعلق بالزمان والمكان ، فلو احللنا الملك الراحل محلّ موسوليني او احللنا موسوليني محلّه لكانت النتيجة هلاكاً محتماً ، ففيصل بطل في البيئة التي تتطلب مرونة ولباقة ودهاء وغاندي بطل في البيئة التي تتطلب اندثاراً وروحاً وفداءً، ولو كان غاندي في سوريا او في مصر او في العراق واراد ان ينجي هذه البلاد بطريقته الروحانية من صلاة واعتكاف واندثار وعدم المقاومة الايجابية لباء بالاخفاق المريع . والدليل على بعد التقييد بوجوب عن الاوتوقراطية الموقف اللين الذي وقفهُ أمام هجمات المرحوم يوسف بك العظمة وزير الحربية ، فقد توترت العلائق بينهما قليلاً في اواخر عهد الحكومة العربية لان يوسف بك كان يتوسل بالشدة والملك كعادته كان يتوسل بالكياسة خصوصاً بعد ما تلقى من بعض الامراء العسكريين إحصاءً بالبنادق والمدافع والعتاد في الجيش العربي دهشنا جميعاً للنقص الذي يدل عليه . فبقينا مدة مشغولين باصلاح ذات البين لنحول دون استقالة وزير الحربية لان استقالته في تلك الايام العصيبة تدل الاعداء على عوراتنا وموضع الضعف منا

وأخيراً قضي الامر ووقعت الحرب — ان صح أن تدعى حرباً — بين فلول جيشنا المسرّح وبين الآلاف المؤلفة من الجنود البيض والسود التي جمعها غورو ممثل أعظم دولة حربية لسحق أحدث دولة سلمية. وبعد ما خرقوا الجبهة حيث استشهد البطل يوسف بك العظمة في الصف الأول طوعاً واختياراً، وقتل القومندان ارلابوس الاسري العرب من فرقة مرزوق بك التخيمي في (ميسلون)، دخلوا دمشق الشام في عصر الاحد الواقع في السادس والعشرين من شهر تموز — يوليو — سنة ١٩٢٠ أما الملك فكان في اليوم السابق قد غادر دمشق على سيارته الى قرية قريبة تدعى الكسوة ونحن تبعناه اليها في القطار ولم يتخلف من الوزراء إلا واحد أو إثنان، وعند ما قاربت الشمس أن تغيب هب نسيم عليل يحمل رائحة الشيح والقيصوم فأعاد ذكريات الثورة العربية الكبرى في نفس الملك وكان مستنداً الى الاحجار السود فقام ونزل الى خندق في الارض طبيعي وصار يتمرن على بندقيته كأنه جندي بسيط يستعد لقطوارى. ولما اظلم الليل قمنا الى المركبات التي أقلتنا وكانت واقفة في المحطة فتناولنا عشاءنا من خبز وكعك وتفاح معفن! — منظر غريب ملك ورجاله وحاشيته يبيتون على الطوى وهم على آمال من عاصمة ملكهم وعاصمة البلدان العربية! أين تلك المهرجانات أين تلك الاعياد أين تلك الاحتفالات أين رمضان بلياليه والبلاط بمدعويه، أين تلك الاهازيج والزغاريد للفاتح العظيم منقذ سورية؟ ومن حسن حظ الملك أنه «ديموقراطي» حتى بين «الديموقراطيين» تستوي في نظره الوسائد والاحجار وقطع اللحم وكسر الخبز والركوب في السيارة والمشي على الاقدام، وقد تعوّد في الثورة شظف العيش والمبيت على الطوى لادراك آمال وتحقيق أحلام

***

كانت في تلك الايام ثورة في العراق شغلت بال الانكليز ودلتهم على ان ادارتهم العسكرية القاسية في تلك الربوع محفوفة بالأخطار فقرروا ان يستفيدوا من المواهب العظيمة التي يتحلى بها من أخرجته قرنا من أحن البلاد اليه «بالحديد والنار» فعرضوا عليه تاج العراق، وكان الفضل الاكبر للمستشرقة «الخاتون» او المس «جرترود بل» في توجيه أنظار الانكليز اليه فسافر الى القطر الشقيق ونزل على الرحب والسعة بين أهله وإخوانه. واذا أردت ان اوجز سلوكه في بلاد الرافدين باعتباره ملكاً عربياً سياسياً نابغاً فاوجزه بالجملة الآتية: (لقد اتخذ فيصل على عاتقه في بغداد ان يخدم القضية الوطنية بمنعه قطع الحبل بين الوطنيين والبريطانيين الى ان يصير العراق قادراً على الدفاع عن نفسه). وقد نجح في هذه الخطة نجاحاً أثار الاعجاب، ونظرة واحدة الى العراق وما حوله من الأقطار الشقيقة تكفي لجعل أبعد الناس شكاً أقربهم الى الايمان. ولم يكن فيصل من الملوك الذين يلتفتون الى اكتناز المال او يعنون بجمع الثروة، فما زرت العراق في سنة ١٩٢٦ علمت من المصادر الخاصة ان راتبه وافته يبلغ يومئذ خمسة وسبعين الف ربية

في الشهر يوزع نحو نصفهُ على المحتاجين من اهل وغرباء . ولما ذهب يوسف بك العظمة الى الجبهة للشهادة في سبيل الوطن استودع ذاك فيصلاً ابنته الصغيرة فقام بخدمتها والعناية بشؤونها الى ان استقلت في معيشتها . وكان ممتازاً بين الملوك الشرقيين بقابليته للتجدد الصحيح والاخذ بمقتضيات النظريات الثابتة، وقد نشر قبيل وفاته حديثاً عن المرأة طريفاً تناقلتهُ الصحف وكان مثار اعجاب الاخصائيين من النقاد الاجتماعيين

آخر جلسة بيننا وختام جلساته في الشرق

وفي مساء الجمعة الواقع في اول الشهر المنصرم (سبتمبر) تناولت بطاقة من القنصلية العراقية في الاسكندرية تقول ان صاحب الجلالة الهاشمية قادم في قطار الليل من القاهرة متكرماً وهو في طريقه الى اوربا ويريد مقابلتك . فلما اجتمعنا رأيت وجههُ شاحباً وجسمهُ هازلاً فاورثني القلق عليهِ لكن نوري باشا السعيد وزير خارجية العراق اخبرني ان جلالته لم ينم في الليلة السابقة سوى ثلاث ساعات وانهُ جاء على متن الطيارة الى القاهرة من غير راحة فركب القطار الى الاسكندرية وانهُ سيستقل الطيارة ايضاً الى اوربا بعيد الفجر. فخفف هذا الحديث شيئاً من قلقي ورجوت ان يكون فيه التعليل الكافي للتعب البادي على محياه والشحوب الظاهر في لونه. وفي الخلاصة الآتية للحديث الذي جرى بيننا وهو وياللاسف آخر احاديثنا مايدل ايضاً على شيء من التدرج الخيري في الفقيد وعلى قابليته للاخذ بما تمليهِ التجارب وتقتضيه سياسة الدولة

جرى ذكر الفتنة الاشورية الاخيرة وكيف اذكى نارها الذين يسوءهم من المجاورين ان يسير العراق الى الامام وكيف بقيت الدول الاستعمارية حتى السنين الاخيرة تعتمد على الاقليات الدينية والنعرات المذهبية لاثارة الفتن فقال «ان مسألة تدعى المسألة الاشورية لم تعد من مسائل العراق» فقلت اريد ان احصل على جواب اطمئن اليهِ عما ذاع عن مظالم الجيش العراقي فطمأنني بما لم يدع شكاً في نفسي حتى اذا حدث شيء من هذا القبيل يكون قد جرى على رغمه ، وتقاليد العرب في هذا الشأن لا تزال مقدسة مرعية الجانب . اما الذين حلوا السلاح وهددوا سلامة الامة فقال انهم لاقوا جزاءهم ، ثم رأيت من واجبي ان اؤيد الموقف وأظهر شعوري وشعور اخواني بما يدعم جلالته فقلت هولئن جاز لاهل البسطة السياسية والتوسع الاقتصادي ان يتوسلوا بمثل هذه الوسائل الجنائية — من تحريك الاقليات الدينية — لتحقيق غاياتهم المادية فمن دواعي الحزن والاسى ان ترضى بعض تلك الاقليات ان تكون مطايا المنافع الاستعمارية الحقيرة ، ومن عادة اوربا ان تعترف بالامر الواقع متى كانت هنالك قوة تدعمه ، وان جواب مصطفى كمال باشا للورد كرزن في مؤتمر لوزان عن الاقلية اليونانية في الاناضول معروف لدى جلالتكم . ولنا عبرة بالغة من سيرة الملك امان الله فهو مصلح ومجدد وطافح بالاخلاص

ولكنه بدأ عمله معكوساً فبدلاً من ان يبدأ بالقوة ليباشر الاصلاح باشر الاصلاح من غير قوة فاخفق اخفاقاً مريعاً». هنا استوقفني الملك العظيم قائلاً ويكاد كل عضو في وجهه ينطق «كن مطمئناً فسترى جيشنا في العام المقبل مؤلفاً من اربع . . . . (وذكر كلمة لم تبق في بالي) وهو على تمام نظام وانحسن عتاد واهم لتحقيق الغاية الكبرى التي وضعناها نصب عيوننا». وقد سرّني هذا الجواب منه كثيراً لانه دلّني على ان هذه الاختبارات المديدة الأليمة اقنعته ان القوة ولو لم تستعمل هي شرط — في اكثر الأحيان جوهري — لنجاح السياسة والكياسة . ثم ذكر فلسطين فقال انها قلب البلدان العربية وموضع حرمتها واجلالها وذكر سورية بتلهف شديد ثم بدت على وجهه ابتسامة شرحت لي ما في اعماق نفسه وقال «لقد اعطتنا فرنسا عما اقدمت عليه في الفتنة الآشورية فرصة لفتح القضية السورية على مصراعيها وسيسمع العالم في الشهر الحاضر حجة العراق في الدفاع عن مصالحه ومصالحها المشتركة فهما قطران يتمم الواحد منهما الآخر» فقلت بل العراق من غير سورية قصر بلا باب وسوريا من غير العراق باب بلا قصر

ولما انتصف الليل قمنا وتصافحنا وكلنا أمل ، ولم يدر في خلدي ان تلك الجلسة كانت آخر جلساتنا وختام جلساته في الشرق

ومما لاشك فيه مطلقاً ان اطفاء الفتنة الآشورية بهذه السرعة وهذا الحزم زاده مقاماً في أعين اهل العراق وسائر البلدان العربية وقوّى الروابط بينه وبين رعيته فلما نزل به القضاء المبرم كان بالغاً ذروة المجد فلا عجب ان تصعق البلاد لنعيه المفاجىء وان يعد فقده كارثة عربية قومية من الطبقة الأولى

ان آخر جملة نطق بها وهو يجود بنفسه على فراش الموت قوله «أنا مرتاح . قمت بواجبي خدمت الامة بكل قواي، ليبرأ الشعب بعدي بقوة واتحاد» اما نحن فلسنا مرتاحين لأننا دفنا في اللحد الذي نواري فيه جسداً ذهبياً عظيماً حشا على امر تحقيقه كل هذه السنين الطوال